الفصل العاشر:
[النشاط العسكري ما بين حنين وتبوك]

تنظيم استيفاء الصدقات والجزية:

شرع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد عودته إلى المدينة في أواخر ذي القعدة في تنظيم الإدارة والجباية، وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد استخلف عتاب بن أسيد على مكة حين انتهى من أداء العمرة، وخلف معه معاذ بن جبل يفقّه الناس ويعلمهم القرآن، وكان رزق عتاب ثلاثين درهما في الشهر [1].

وفي مطلع المحرم من العام التاسع وجّه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عماله على المناطق المختلفة. فبعث:

- بريدة بن الحصيب إلى أسلم وغفار.
- وعباد بن بشر الأشهلي إلى سليم ومزينة.
- ورافع بن مكيث إلى جهينة.
- وعمرو بن العاص إلى فزارة.
- والضحاك بن سفيان الكلابي إلى بني كلاب.
- وبسر بن سفيان الكعبي إلى بني كعب.
- وابن اللّتبيّة الأزدى إلى بني ذبيان.
- ورجلا من بني سعد بن هذيم إلى بني هذيم [2].
- والمهاجر بن أبي أمية إلى صنعاء.
- وزياد بن لبيد إلى حضرموت.
- وعدي بن حاتم الطائي إلى طيء وأسد.
- ومالك بن نويرة إلى بني حنظلة.
- والزبرقان بن بدر وقيس بن عاصم إلى بني سعد [3].

---

(١) ابن حجر - الإصابة ٢/ ٤٥١، البخاري - التاريخ الكبير ٧/ ٥٤، خليفة بن خياط - التاريخ ص/ ٨٨.

(٢) الواقدي - المغازي ٣/ ٩٧٣، ابن سعد - الطبقات ٢/ ١٦٠.

(٣) ابن هشام - السيرة ٤/ ٣٢٨.

- والعلاء بن الحضرمي إلى البحرين .
- وعلي بن أبي طالب إلى نجران ليجمع صدقتهم ، ويقدم عليه بجزيتهم [1] .

وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستوفي الحساب على العمال ، يحاسبهم على المستخرج والمصروف ، كما فعل مع عامله ابن اللُّتبيَّة بن الأزد حيث حاسبه عندما قال الرجل[2]: هذا لكم ، وهذا أهدي لي ، فقام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، وقال: «**ما بال عامل أبعثه فيقول: هذا لكم، وهذا أهدي لي، أفلا قعد في بيت أبيه أو بيت أمه حتى ينظر أيهدى إليه أم لا؟ والذي نفس محمد بيده، لا ينال أحد منكم منها شيئا إلا جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه، إن كان بعيرًا له رغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة تيعر**» ثم رفع يديه حتى رأينا عفرتي إبطيه ثم قال: «**اللهم هل بلغت**» مرتين[3] وكان يقول أيضا: «**أيما عامل استعملناه وفرضنا له رزقًا فما أصاب بعد رزقه فهو غلول**»[4] .

السرايا والأحداث حتى غزوة تبوك:

كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد بعث الطفيل بن عمرو من مقرّه في حنين وقبل أن يسير إلى الطائف ، وأمره بأن يهدم «ذي الكفين» صنم عمرو بن حممة الدوسي ، ثم يستمد قومه ويوافيه مع المدد إلى الطائف ، وقد نفذ الطفيل بن عمرو أوامر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهدم «ذي الكفين» وحرقه وقاد أربعمائة من قومه ومعهم دبابة ومنجنيق مددا لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فوصلوا إليه بعد مقدمه الطائف بأربعة أيام [5] .

- سرية عيينة بن حصن الفزاري - في المحرم سنة ٩ هـ - إلى بني تميم في خمسين فارسا:

لم يكن فيهم مهاجري ولا أنصاري ، وسببها أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعث بشر بن سفيان إلى بني كعب لأخذ صدقاتهم وكانوا مع بني تميم على ماء فأخذ بشر صدقات بني كعب فقال لهم بنو تميم وقد استكثروا ذلك لم تعطونهم أموالكم

---

(١) ابن هشام - السيرة ٤/ ٣٢٨ .
(٢) منصور الحرابي ، الدولة العربية الإسلامية ، ص٤٣ .
(٣) مسلم ، باب محاسبة الإمام عماله رقم ١٨٣٢ ، صحيح السيرة ، ص ٥٧٩ .
(٤) التراتيب الإدارية للكتاني ، (١/ ٢٦٥) .
(٥) ابن هشام - السيرة ٢/ ٣٨٥ .

فاجتمعوا واشهروا السلاح ومنعوا بشرا من أخذ الصدقة فقال لهم بنو كعب نحن أسلمنا ولا بد في ديننا من دفع الزكاة فقال لهم بنو تميم والله لا ندع يخرج بعير واحد ولما رأى بشر رضي الله تعالى عنه ذلك قدم المدينة وأخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك فعند ذلك بعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عيينة بن حصن الفزاري إلى بني تميم في خمسين فارسا من العرب ليس فيهم مهاجري ولا أنصاري فكان يسير الليل ويكمن النهار فهجم عليهم وأخذ منهم أحد عشر رجلا وإحدى وعشرين امرأة وثلاثين صبيا فجاء بهم إلى المدينة فأمر بهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فحبسوا في دار رملة بنت الحارث فجاء في أثرهم جماعة من رؤسائهم منهم عطارد ابن حاجب والزبرقان بن بدر والاقرع بن حابس وقيس بن الحارث ونعيم بن سعد وعمرو بن الأهتم ورباح بن الحارث فلما رأوهم بكى إليهم النساء والذراري فجاءوا إلى باب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أي بعد أن دخلوا المسجد ووجدوا بلالا يؤذن بالظهر والناس ينتظرون خروج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد أن دخلوا المسجد ووجدوا بلالا يؤذن بالظهر والناس ينتظرون خروج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فاستبطئوه فجاءوا من وراء الحجرات فنادوا بصوت جاف اخرج إلينا نفاخرك ونشاعرك فإن مدحنا زين وذمنا شين يا محمد اخرج إلينا فخرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقد تأذى من صياحهم وأقام بلال رضي الله تعالى عنه الصلاة وتعلقوا برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يكلمونه فوقف معهم، قالوا له نحن ناس من تميم جئنا بشاعرنا وخطيبنا نشاعرك ونفاخرك فقال لهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما بالشعر بعثنا ولا بالفخار أمرنا**» ثم مضى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فصلى الظهر ثم جلس في صحن المسجد بعد أن قالوا: إن مدحنا لزين وإن شتمنا لشين نحن أكرم العرب فقال لهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كذبتم بل مدح الله عز وجل الزين وشتمه الشين وأكرم منكم يوسف بن يعقوب عليهما الصلاة والسلام**» ثم قالوا له: فائذن لخطيبنا وشاعرنا قال: «**أذنت فليقم**»، فقدموا عطارد بن حاجب فتكلم وخطب، فأمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثابت بن قيس بن شماس - خطيب الإسلام - فأجابهم، ثم قدموا شاعرهم الزبرقان بن بدر، فأنشد مفاخراً، فأجابه شاعر الإسلام حسان بن ثابت على البديهة.

ولما فرغ الخطيبان والشاعران قال الأقرع بن حابس: خطيبه أخطب من خطيبنا، وشاعره أشعر من شاعرنا، وأصواتهم أعلى من أصواتنا، وأقوالهم أعلى من أقوالنا، ثم أسلموا، فأجازهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأحسن جوائزهم،

ورد عليهم نساءهم وأبناءهم[1] .

سرية قطبة بن عامر رضي الله تعالى عنه إلى حي من خثعم بناحية تبالة بالقرب من تُرَبَة في صفر سنة ٩ هـ :

بعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قطبه بن عامر في عشرين رجلا إلى حي من خثعم وأمره أن يشن الغارة عليهم فخرجوا على عشرة أبعرة يعتقبونها فأخذوا رجلا فسألوه فاستعجم عليهم أي سكت ولم يعلمهم بالأمر فجعل يصيح بالحاضر وهم القوم النزول على ماء يقيمون به ولا يرتحلون عنه كما تقدم ويحذرهم فضربوا عنقه ثم أمهلوا حتى نام الحاضر فشنوا الغارة عليهم فاقتتلوا قتالا شديدا حتى كثرت الجرحى في الفريقين وساقوا النعم والشاء إلى المدينة [2] .

-سرية الضحاك بن سفيان الكلابي إلى بني كِلاَب في ربيع الأول سنة ٩هـ :

- في شهر ربيع الأول سنة تسع من الهجرة ارسل رسول الله جيشا إلى القرطاء عليهم الضحاك بن أبي بكر الكلابي وكان من الشجعان الأبطال ومعه الأصيد بن سلمة بن قرط فلقوهم بالزج زج لاوة [3] فدعوهم إلى الإسلام فأبوا فقاتلوهم فهزموهم وغنم أموالهم فلحق الأصيد أباه سلمة وسلمة على فرس له في غدير بالزج فدعا أباه إلى الإسلام وأعطاه الأمان فسبه وسب دينة فضرب الأصيد عرقوبي فرس أبيه فلما وقع الفرس على عرقوبيه ارتكز سلمة على رمحه في الماء ثم استمسك به حتى جاءه أحدهم فقتله ولم يقتله ابنه [4]

سرية علقمة بن مجزز:

ثم بلغ رسول الله أن جمعًا من الحبشة رآهم أهل جُدَّةَ في مراكبهم يريدون الإغارة عليهم ، فأرسل لهم علقمة بن مُجَزِّز في ثلاث مئة ، فذهب حتى وصل جُدَّةَ ، ونزل في المراكب ليدركهم ، وكان الأحباش متحصنين في جزيرة هناك ، فلما رأوا المسلمون يريدون هربوا ، ولم يلقَ المسلمون كيدًا ، فرجع علقمة بمن معه[5] .

---

(١) السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون ، ٣/ ٢١٦ - ٢٢١ .
(٢) كتاب المغازي للواقدي ، ٣/ ٩٨١ ، زاد المعاد في هَدْي خير العباد ، ٣/ ٤٤٦ .
(٣) موضع بنجد .
(٤) عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير ، ٢/ ٢٢٩ ، زاد المعاد في هَدْي خير العباد ، ٣/ ٤٥٠ ، الطبقات الكبرى ، ٢/ ١٦٢ .
(٥) طبقات ابن سعد ، ٢ / ١٦٣ .

إسلام كعب بن زهير بن أبي سلمى المزني الشاعر:

كان الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أهدر دم كعب بن زهير في أعقاب هجوه لأخيه بجير بقصيدة عرّض فيها بالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبأبي بكر (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) [1]، فكتب إليه أخوه محذرا وحثه علي القدوم وقد سمع كعب نصيحة أخيه بجير التي ضمنها قصيدته التي جاء فيها قوله:

إلى الله لا العزى ولا اللات وحده ::: فتنجو إذا كان النجاء وتسلم

فأسلم وقدم على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأمنه، فأنشده قصيدته المشهورة «بانت سعاد» التي ألقاها في المسجد على مسامع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه وهي قصيدة طويلة نقل منها ابن هشام أكثر من خمسين بيتا فيها اعتذار وإقرار بالخطأ ومديح ودفاع عن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ودينه ورد فيها قوله:

نبئت أن رسول الله أوعدني ::: والعفو عند رسول الله مأمول
لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم ::: نافلة القرآن فيها مواعيظ وتفصيل
مهلا هداك الذي أعطاك ::: أذنب ولو كثرت فيّ الأقاويل

وقد سر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك، وحين بلغ قوله:

إن الرسول لنور يستضاء به ::: مهنّد من سيوف الله مسلول
في عصبة من قريش قال قائلهم ::: ببطن مكة لما أسلموا زولوا

أشار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بكمه إلى الناس ليأتوا ويسمعوا منه، ورمى على كعب بردة كانت عليه [2] وهي التي صارت إلى الخلفاء [3]، قال ابن كثير: هذا من الأمور المشهورة جداً، ولكن لم أر ذلك في شيء من هذه الكتب المشهورة باسناد أرتضيه فالله أعلم [4].

ويقال إن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال له بعد ذلك لولا ذكرت الأنصار بخير، فإن الأنصار لذلك أهل [5]، فقال:

---

(١) ابن هشام - السيرة ٤/ ٢٠١، الذهبي - المغازي ص ٦١٨ - ٢١٦، البيهقي - دلائل النبوة ٥/ ٢٠٧.
(٢) ابن هشام - السيرة ٤/ ٢٠١.
(٣) السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٤٨٧).
(٤) البداية والنهاية (٤/ ٣٧٣).
(٥) البداية والنهاية (٤/ ٣٧٣).

من سرّه كرمُ الحياة فلا يزل ::: في مقْنَب من صالحي الأنصار[1]
يتطهرون يرونه نُسكا لهم ::: إن الخيار هم بنو الأخيار
والقائدين[4] الناس عن أديانهم ::: كسوالف الهندي غير قصار[2]
والبائعين نفوسهم لنبيهم ::: كالجمر غير كليلة الأبصار
والناظرين بأعين محمرة ::: للموت يوم تعانق وكرار
المُكرهين السَّمْهريَّ بأذرع ::: بالمشرفيِّ وبالقنا الخطّار[3]
ورثوا المكارم كابراً عن كابر ::: بدماءِ من علقوا من الكفار

إلى أن قال:

لو يعلم الأقوام علميَ كلّه ::: فيهم لصدَّقني الذي أماري[5]
قوم إذا خَوتِ النجوم فإنهم ::: للطارقين[6] النّازلين مقاري[7]

وبإسلام كعب بن زهير نستطيع القول بأن الشعراء المعارضين للدعوة الإسلامية قد انتهى دورهم، فقد أسلم ضرار بن الخطاب وعبدالله ابن الزبعري، وأبو سفيان بن الحارث، والحارث بن هشام، والعباس بن مرداس، وتحولوا إلى الصف الإسلامي واستظلوا بلوائه عن قناعة وإيمان، ولم يكتف بعضهم بأن تكون كلمته في الدفاع عن الإسلام بل كان سيفه إلى جانب كلمته، وهذا من بركات فتح مكة[8].

سرية عبد الله بن حذافة السهمي:

عن علي بن أبي طالب قال: استعمل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجلا من الأنصار يرجح أن يكون عبد الله بن حذافة السهمي[9]، على سرية وأمرهم أن يطيعوه،

---

(١) المنقب: الجماعة من الخيل. يريد به القوم على ظهور جيادهم.
(٢) السمهري: الرمح، سوالف الهندي: حواشي السيف.
(٣) المشرفي: السيف، والقنا، الرماح جمع قناة، والخطار: المهتز.
(٤) القائدين: المانعين الناس.
(٥) أماري: أجادل.
(٦) خوت النجوم: أي سقطت، الطارقون الذين يأتون بالليل.
(٧) ابن هشام - السيرة ٤/ ٢٠١.
(٨) معين السيرة، ص٤٣١، ٤٣٢، ٤٣٣.
(٩) البخاري - الصحيح (فتح الباري حديث ٤٥٨٤)، مسلم - الصحيح ٣/ ١٤٦٥، (الحديث ١٨٣٤)، أحمد - المسند ٣/ ٦٧، وانظر صحيح سنن ابن ماجه للألباني ٢/ ١٤٢ (حديث ٢٨٦٣) والحاكم - المستدرك ٣/ ٦٣٠ - ١.

فأغضبوه في شيء، فأمرهم فأوقدوا نارا، ثم ذكرهم بأمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهم بالسمع والطاعة له، وأمرهم أن يدخلوا النار التي أوقدوها، فامتنعوا وقالوا: «إنما فررنا إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من النار» وحين علم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالأمر قال «**لو دخلوها ما خرجوا منها، إنّما الطّاعة في المعروف**»[1]. وقد روى الشيخان أن الآية: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] قد نزلت فيه عندما أرسله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في السرية[2].

ويستفاد من هذا الموقف ما يأتي:

- إن الطاعة العمياء والاستجابة المطلقة للحكام لا تقل ضرراً وفساداً عما يضادها من الطيش والفوضى دون طاعة لحاكم أو أمير.

- أنه لا طاعة مطلقة إلا للرسل عليهم السلام فليس من المخلوقين من أمره حتم بإطلاق إلا الرسل عليهم السلام.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: من نصب إماماً فأوجب طاعته مطلقاً اعتقاداً أو حالاً فقد ضل في ذلك كأئمة الضلال الرافضة الإمامية؛ حيث جعلوا في كل وقت إماماً معصوماً تجب طاعته، فإنه لا معصوم بعد الرسول، ولا تجب طاعة أحد بعده في كل شيء[3].

- أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، كما في حدث سرية عبد الله بن حذافة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عندما أمر أصحابه بأن يوقدوا ناراً ويدخلوها؛ فلما بلغ ذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لو دخلوها ما خرجوا منها أبداً؛ إنما الطاعة في المعروف**»[4].

ومما قاله ابن القيم في شأن تلك الحادثة: وإن كانوا مطيعين لولي الأمر فلم تدفعهم طاعتهم لولي الأمر معصيتهم لله ورسوله؛ لأنهم قد علموا أن من قتل

---

(١) البخاري - الصحيح (فتح الباري حديث ٧١٤٥)، مسلم - الصحيح ٣/ ١٤٦٩، كتاب الإمارة، (الحديث ١٨٤٠).

(٢) خالف ذلك الحافظ ابن كثير (التفسير ٢/ ٣٠٣) والطبري (التفسير ٨/ ٤٩٨ - ٩) وقالا إنها إنما نزلت في خالد بن الوليد، وقالا إن الآية في جميع أولي الأمر من الأمراء والعلماء، وذكر الواقدي في المغازي (٣/ ٩٨٣) وتابعه ابن سعد في الطبقات (٢/ ١٦٣) أنها نزلت في علقمة بن محرز حين بعثه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سرية لرد الأحباش عن جدة.

(٣) الفتاوى، ١٩/ ٦٩.

(٤) رواه البخاري، ح/ ٧١٤٥.

نفسه فهو مستحق للوعيد؛ فإذا كان هذا حكم من عذب نفسه طاعة لولي الأمر، فكيف من عذّب مسلماً لا يجوز تعذيبه طاعة لولي الأمر.

وأيضاً فإذا كان الصحابة المذكورون لو دخلوها لما خرجوا منها مع قصدهم طاعة الله ورسوله بذلك الدخول، فكيف بمن حمله على ما لا يجوز من الطاعة الرغبةُ والرهبة الدنيوية؟ [1].

سرية علي بن أبي طالب لهدم صنم الفُلس في بلاد طيء:

وفي ربيع الآخر خرجت سرية علي بن أبي طالب إلى الفُلس - صنم لطيء - ليهدمه وكان تعدادها خمسين ومائة رجل من الأنصار، على مائة بعير وخمسين فرساً، ومعه راية سوداء، ولواء أبيض، فشنّوا الغارة على محلة آل حاتم - حاتم الطائي الذي ضرب المثل بجودة - مع الفجر فهدموا الفُلس وخربوه، وملؤوا أيديهم من السَّبي والنَّعَم والشَّاء وفي السبي أخت عدي بن حاتم سَفَّانة بنت حاتم طيّئ. وهرب عدي إلى الشام [2].

ولما رجع علي إلى المدينة طلبت سفَّانة من رسول الله أن يَمُنَّ عليها، فأجابها لأنه كان من سنته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يكرم الكرام، فدعت له، وكان من دعائها: شكرتْكَ يد افتقرت بعد غنى، ولا ملكتكَ يد استغنت بعد فقر، وأصاب الله بمعروفك مواضعه، ولا جعل لك إلى لئيم حاجة، ولا سلب نعمة كريم إلا وجعلك سببًا لردّها عليه.

وقيل: أنها قالت له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يا محمد أرأيت أن تمن علي ولا تفضحني في قومي فإني بنت سيدهم إن أبي كان يطعم الطعام ويحفظ الجوار ويرعى الذمار ويفك العاني ويشبع الجائع ويكسو العريان ولم يرد طالب حاجة قط أنا بنت حاتم الطائي فقال لها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هذه مكارم الاخلاق حقا ولو كان أبوك مسلما لترحمت عليه خلوا عنها فإن أباها يحب مكارم الأخلاق وإن الله يحب مكارم الأخلاق**» [3].

وكانت هذه المعاملة من رسول الله سببًا في إسلام أخيها عدي بن حاتم الطائي الذي كان فرّ إلى الشام عندما رأى الرايات الإسلامية قاصدة بلاده، وكان

---

(١) زاد المعاد، ٣/ ٦٩.

(٢) تاريخ الإسلام للذهبي، المغازي، ص٦٢٤.

(٣) السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون، ٣/ ٢٢٤.

من حديث مجيئه أن أخته توجهت إليه بالشام، وأخبرته بما عُوملت به من الكرم، فقال لها: ما ترين في أمر هذا الرجل؟ فقالت: أرى أن تلحق به سريعًا، فإن يكن نبيًّا فللسابق إليه فضل، وإن يكن ملكًا فأنت أنت. قال: والله، هذا هو الرأي[1].

فخرج حتى جاء المدينة، ولقي رسول الله، فقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: "من الرجل؟" قال: عدي بن حاتم، فأخذه إلى بيته، وبينما هما يمشيان إذ لقيت رسول الله امرأة عجوز، فاستوقفته، فوقف لها طويلا تُكلمه في حاجتها، فقال عدي: والله ما هو بملك. ثم مضى رسول الله حتى إذا دخل بيته تناول وسادة من جلد محشوة ليفًا فقدّمها إلى عدي، وقال: "اجلسْ على هذه". فقال: بل أنت تجلس عليها، فامتنع عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وأعطاها له، وجلس هو على الأرض، ثم قال: «**يا عدي، أسلم، تسلم**» قالها ثلاثًا، فقال عدي: إني على دين، وكان نصرانيًّا. فقال له عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**أنا أعلم بدينك منك**» فقال عدي: أأنت أعلم بديني منّي؟ قال: «**نعم**». ثم عدّد له أشياء كان يفعلها اتباعًا لقواعد العرب وليست من دين المسيح في شيء كأخذه الرباع وهو ربع الغنائم. ثم قال: «**يا عدي، إنما يمنعك من الدخول في الدين ما ترى، تقول: إنما اتَّبعه ضَعَفَةُ الناس ومن لا قدرة لهم، وقد رمتهم العرب مع حاجتهم، فوالله، ليوشكَنَّ المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد مَنْ يأخذه، ولعلّك إنما يمنعك من الدخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم، أتعرف الحِيْرة؟**» قال: لم أرها وقد سمعت بها، قال: «**فوالله ليتمَّنَّ هذا الأمر حتى تخرج المرأة من الحيرة تطوف بالبيت من غير جوار أحد، ولعلّك إنما يمنعك من الدخول فيه أنك ترى الملك والسلطان في غيرهم، وايم الله، ليوشكنَّ أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فُتحت عليهم**». فأسلم عدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعاش حتى رأى كل ذلك[2].

وفي هذه القصة دروس وعبر كثيرة منها:

- كان عدي وهو مقبل على رسول الله يحمل في تصوره أنه أحد رجلين إما نبي، أو ملك، فلما رأى وقوف رسول الله مع المرأة الضعيفة الكبيرة مدة طويلة شعر بخلق التواضع وانسلخ من ذهنه عامل الملك، واستقر في تصوره عامل النبوة.

(١) طبقات ابن سعد: ٢ / ١٦٤، دلائل النبوة: ٥ / ٣٤٠ وما بعدها.
(٢) دلائل النبوة، ٥ / ٣٣٧ وما بعدها.

- كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ موفقاً حينما انتقد عدياً في مخالفته للدين الذي يعتنقه، حيث حصل لعدي اليقين بنبوة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي يعلم من دينه مالا يعلمه الناس من حوله.

- لما ظهر للنبي أن عدياً قد أيقن بنبوته تحدث عن العوائق التي تحول بين بعض الناس واتباع الحق حتى مع معرفتهم بأنه حق، ومنها ضعف المسلمين وعدم اتساع دولتهم، وماهم فيه من الفقر فأبان له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن الأمن سيشمل البلاد حتى تخرج المرأة من العراق إلى مكة من غير أن تحتاج إلى حماية أحد، وأن دولة الفرس ستقع تحت سلطان المسلمين، وأن المال سيفيض حتى لايقبله أحد، فلما زالت عن عدي هذه المعوقات أسلم.

- كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ موفقاً في دعوته حيث كان خبيراً بأدواء النفوس ودوائها، ومواطن الضعف فيها وأزمَّة قيادها، فكان يلائم كل إنسان بما يلائم علمه وفكره وماينسجم مع مشاعره وأحاسيسه ولذلك أثر في زعماء القبائل ودخل الناس في دين الله أفواجاً[1].

- وجد عدي سمات النبوة الصادقة في مظهر معيشته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحياته، ووجد هذه السمات أيضاً في لون حديثه وكلامه ووجد مصداق ذلك فيما بعد، في وقائع الزمن والتاريخ، فكان ذلك سبب في إسلامه وزيادة يقينه وانخلاعه عن زخارف الحياة الدنيا ومظاهر الأبهة والترف التي كان قد أسبغها عليه قومه[2].

* * * * *

(١) التاريخ الإسلامي (٨/ ٥٨، ٨٦).
(٢) فقه السيرة للبوطي، ص٣٢١.